فقه الموازنات

في مرحلة الدعوة النبوية السلمية

إن كل خطوة خطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبني ويشيد صرح الإسلام الحضاري، ويقيم دولته، وينشر دعوته، كانت تستند إلى فقهٍ عظيمٍ في كل جوانب الحياة؛ فقهٍ في النفوس وخصائصها واختلافاتها، وفقهٍ في التعامل مع الظروف والأحداث المختلفة، وكل ذلك مبنيٌ على موازناتٍ دقيقةٍ تعتبر نبراساً ومناراً لكل من يأتي بعده من حكامٍ وقضاةٍ ودعاةٍ ومربين ومعلمين وموجهين وحملة العلم وعامة المسلمين.

والمتتبع لسيرته العطرة يلحظ فقه الموازنات في كل مرحلة من مراحلها، بدءاً من دعوته السرية إلى آخر لحظة من حياته الشريفة.

أولاً: البدء بالدعوة السرية

إن تبليغ الناس ديناً لم يعرفوه، وعقيدةً لم يألفوها أمرٌ عسيرٌ، وجهادٌ غير يسيرٍ، لتمكن التقاليد القديمة من النفوس، وتآلفها مع المعروف الشائع، لذلك فإن هذا الانتقال يحتاج إلى الحكمة وأساليب الدعوة الناجعة، كأن يكون البدء بالأفراد الأكثر قرباً من الدين الجديد، والأكثر قدرةً على التأثر والتأثير، ثم تكوين مجموعاتٍ تحقق الدعوة في مجالاتٍ جديدةٍ ، لذلك أخذت الدعوة الإسلامية في بادئ أمرها منحى السرية والانتقائية، لذلك أسر النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته ، وبدء بانتقاء الناس الأمناء على دعوته، والذين لا يتصور تخلفهم عنها .
واستمرت فترة الدعوة السرية ثلاث سنين .

من هذا السرد يتضح لنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام وازن بين الجهر بالدعوة والإسرار بها، فرأى المصلحة في الإسرار فرجَحه لما يحقق من مصالح كثيرة منها:

1. وهي أعظمها تكوين جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون، وتحمل على كاهلها تبليغ الدعوة والتمكين لها في الأرض، وهذا يحتاج إلى لقاءات فردية للكشف عن معادن الرجال وتحتاج إلى مساعدٍ خبيرٍ بأنساب قريش والعرب كالصديق رضي الله عنه، والمتتبع لسير هذا الرعيل الأول يجدهم هم الذين أشادوا صرح الإسلام الحضاري على أكتافهم، فمنهم الخلفاء الراشدون، ومنهم وزراء الاقتصاد كعثمان وعبد الرحمن رضي الله عنهما ، ومنهم قادة الفتوحات كسعدٍ وأبي عبيدة – رضي الله عنهم جميعاً –، وتكوين هذه النخبة لا يتأتى في الدعوة الجهرية، بل بدعوةٍ سريةٍ تعد مرحلة اصطفاء للطاقات، وإعدادٍ للقواعد التي يشاد عليها صرح الإسلام الحضاري.

إن بناء النماذج الدعوية الأولى التي ينعكس فيها فكر الداعية الأول وخلقه وأسلوبه هو السبيل الأمثل لتحقيق بناء المرحلة الأولى للدعوة، ثم الاهتمام بقضية المراحل التي يستطيع فيها الإنسان أن يتبدل ويتحول، من حيث الموضوع والزمن، ليطبق ما يقتضيه الدين الجديد للمجتمع، وما لم يكن ذلك وببرنامجٍ واضحٍ ومحددٍ، فإن نجاح الدعوة سيكون مرهوناً بيد أعدائها لا بيد أصحابها، وهذا يعني الفشل المحقق .

2-الوقاية من الاصطدام بقومٍ جفاةٍ لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان، ولا حجة لهم إلا أنهم ألفوا آباءهم على ذلك، ولا أخلاق لهم إلا الأخذ بالعزة والأنفة، ولا سبيل لهم في حل المشاكل إلا السيف، وكانوا مع ذلك متصدرين للزعامة الدينية في جزيرة العرب، ومحتلين مركزها الرئيس، ضامنين حفظ كيانها، فقد كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية؛ لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم .

يقول الدكتور السباعي رحمه الله في ذلك: "إن دعوة الإصلاح إذا كانت غريبةً على معتقدات الجمهور وعقليته، ينبغي ألا يجهر بها الداعية حتى يؤمن بها عددٌ يضحون من أجلها بالغالي والرخيص، حتى إذا نال صاحب الدعوة الأذى، قام أتباعه المؤمنون بدعوته بواجب الدعوة فيضمن ذلك استمرارها» .

3-ضمان انتشار الدعوة الإسلامية بين الذين تميل نفوسهم للوحدانية وترفض عبادة الأوثان ويبحثون عن الحقيقة، فتبلغهم الدعوة وتجمعهم برسول الله وتعلمهم الدين الجديد.

4-ضمان اتساع نطاق الدعوة في البطون والعشائر والقبائل، وتوغلها في الأوساط الاجتماعية، على اختلاف مستوياتها وامتداداتها في مكة وخارجها، حتى يصبح من العسير على زعامة مكة القضاء عليها وكسب الزمن.

5-ضرورة الإبقاء على أفرادٍ مؤمنين يكتمون إيمانهم وسط زعامة قريش وبنائها الاجتماعي، ليمكن المسلمين من معرفة ما يأتمرون به ضد الإسلام.

6-ضرورة إتاحة الفرصة أمام الذين دخلوا في الإسلام من مصاحبة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعميق عقيدتهم، وتعليمهم أمور الإسلام، وتأهيلهم للصمود والدعوة .

إن إسرار النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته كان وفقاً لسياسةٍ مصلحية تعتمد على موازناتٍ دقيقةٍ ،فالاستسرار بها كان لضرورة فرضها الواقع، وإلا فالأصل هو بيان دين الله وشرعه، وحكمه لكل الناس،

أما الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل والخطط والتفصيلات، فهو أمرٌ مصلحيٌ خاضعٌ للنظر والاجتهاد البشري، إذ لا يترتب عليه كتمان للدين، ولا سكوت عن حق، ولا يتعلق به بيانٌ، ولا بلاغٌ، ومن ذلك مثلاً معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدعوة، فهذا أمٌر مصلحيٌ لا يخل بقضية البلاغ والنذارة، التي نزلت الكتب وبعثت الرسل من أجلها، فيمكن أن يظل سرًّا متى كانت المصلحة في ذلك مع القيام بأمر الدعوة والتبليغ؛ ولهذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم حتى بعد أن صدع بدعوته، وأنذر الناس وأعلن النبوة، ظل يخفي أشياء كثيرة، لا تؤثر على مهمة البلاغ والبيان كعدد أتباعه، وأين يجتمع بهم؟ وما هي الخطط التي يتخذونها إزاء الكيد الجاهلي" .

ثانياً: سلمية الدعوة واهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالبناء الداخلي

بإسلام عمر وحمزة – رضي الله عنهما – جهر المسلمون بدعوتهم وبجماعتهم بعد أن مرّت الدعوة بمرحلتين دعويتين:

الأولى: سرية الدعوة وسرية التنظيم والعمل الجماعي، واستمرت ثلاث سنين.

الثانية: جهرية الدعوة وكانت على جبل الصفا، وسرية التنظيم وانتهت بإسلام عمر وحمزة – رضي الله عنهما –.

وما لبث أن وثبت كل قبيلةٍ على من فيهم من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والتجويع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر كما فعلوا ببلال وعمار وغيرهما – رضي الله عنهم –.

وقد سلط الأذى على الجميع ولم يُستَثْنَ منه أحدٌ، وكثيراً ما فكر الصحابة برد العدوان وبمواجهة المشركين ولكن الرد كان: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة.

ويبدو أن الموقف السلمي أغاظ بعضهم وخاصة الشباب منهم، وقد أتى عبد الرحمن بن عوف وأصحابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزةٍ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلةً قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم».

إن المواجهة المسلحة بين الجماعة المسلمة الناشئة وبين المجتمع القرشي الوثني قد يحقق بعض المصالح للمسلمين منها رد الأذى بمثله، ورد الاعتبار للمسلمين المستضعفين، وإذلال المشركين والكسر من شوكتهم، ونصر دين الله وإعزاز أهله.

ولكن هذه المصالح الظاهرة القريبة ما هي إلا مصالح آنيةٌ ما تلبث أن تنقلب إلى النقيض، فالمسلمون قلةٌ قليلةٌ في مجتمعٍ أكثره لا يؤمن بدعوتهم، فالمواجهة المسلحة ستدخل المسلمين في دوامةٍ تبدد طاقاتهم وتطحنهم في رحاها طحناً وبالتالي ستوأد الدعوة الوليدة في مهدها، وإن عاشت بعض الوقت فسيكون قصيراً جداً، لذلك كان التوجيه النبوي الحكيم بترك المواجهة لما ستؤول إليه من تلك المفاسد العظيمة التي ستطيح بالدعوة الوليدة.

ولقد كان للصبر على الأذى الكثير من المصالح التي عادت على المسلمين منها:

1. تربية الفرد العربي المسلم على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم حين يقع عليه أو على من يلوذون به، ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يهتاج لأول مهيجٍ، ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته، ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره -مهما يكن مخالفًا لمألوفه وعادته- وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء (المجتمع المسلم).

2-كما أن الدعوة السلمية، أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها – في مثل هذه الفترة – إلى زيادة العناد، ونشأة ثارات دموية جديدة، كثارات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس، وحينئذ يتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات، تنسى معها فكرته الأساسية.

3- من ذلك أيضًا اجتناب إنشاء معركةٍ ومقتلةٍ داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد، ومعنى الإذن بالقتال، في مثل هذه البيئة، أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت ثم يقال: هذا هو الإسلام، ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال، فقد كانت دعاية قريش في المواسم، إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده، فوق تفريقه لقومه وعشيرته، فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟

4-و من ذلك أيضًا، لما يعلمه الله من أن كثيرًا من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بين هؤلاء؟

5-و من ذلك أيضًا؛ أن النخوة العربية في بيئةٍ قبليةٍ من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع، وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم، وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة، فابن الدُّغُنَّة لم يرض أن يترك أبا بكر وهو رجل كريم يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب، وعرض عليه جواره وحمايته، وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.

6-وربما كان ذلك أيضًا لقلة عدد المسلمين حينئذ، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة أو بلغت ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش، وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف، ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة، حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم، ويبقى الشرك ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام، ولا يوجد له كيان واقعي، وهو دين جاء ليكون منهج حياة ونظام دنيا وآخرة.

7-إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال، ودفع الأذى؛ لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة ،كان قائمًا ومحققًا وهو (وجود الدعوة)، ووجودها في شخص الداعية محمد صلى الله عليه وسلم، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع،

ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة وإعلانها في ندوات قريش حول الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة، ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلامًا بعينه يقوله.

8-إن القتال في مكة يسبب في مفسدةٍ إعلاميةٍ تتمثل في إشاعة المشركين أن محمداً يفرق بهذا الدين بين الابن وأبيه، بل إنه يأمر الابن بقتال أبيه.

مما سبق يتضح لنا كيف علّم رسول الله عليه الصلاة والسلام صحابته الكرام فقه الموازنات فلا يسعوا لتحقيق مصالح محدودة آنية ولو أدت إلى مفاسد أعظم منها، كما علّمهم أهمية الصبر على الأذى وهو مفسدةٌ آنيةٌ لأن الصبر يؤدي إلى مصالح عظيمة كما رأينا.

ثالثاً: الحصار الاقتصادي والاجتماعي، ومكاسب الصبر والاحتمال.

قال الزهري: "ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا، حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها، أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيةً، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حميةً، ومنهم من فعله إيماناً ويقينًا، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهودًا ومواثيق، لا يتقبلوا من بني هاشم أبدًا صلحًا، ولا يأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل»

وفي روايةٍ أخرى: على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، ولا يدعوا سببًا من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلموهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

فلبث بنو هاشم والمسلمون في الشعب ثلاث سنين، حتى جهدوا من ضيق الحصار، وأكلوا ورق السمر (مفرده سمرة و هو شجرٌ صحراوي صغير الورق والشوك) ، وأطفالهم يتضاغون (يبكون بصوت مرتفع) من الجوع، حتى يسمع بكاؤهم من بعيدٍ، وقريش تحول بينهم وبين التجار، فيزيدون عليهم السلعة أضعافاً حتى لا يشتروها.

ومع كل هذا القهر الذي نزل بالمسلمين كانت تعليمات الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ألاَّ يواجهوا العدو، وأن يضبطوا أعصابهم، فلا يشعلوا فتيل المعركة، أو يكونوا وقودها، وإن أعظم تربية في هذه المرحلة هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى دون مقاومة – حمزة وعمر وأبو بكر وعثمان، وغيرهم رضي الله عنهم – سمعوا وأطاعوا، فلقوا كل هذا الأذى وهذا الحقد، وهذا الظلم، فكفوا أيديهم، وصبروا ليس على حادثة واحدة فقط، أو يومًا واحدًا فقط بل ثلاث سنين عجاف، تحترق أعصابهم ولا يسمح لهم برمية سهم أو شجة رأس .

بعد سرد الروايات السابقة عن حصار الشعب أقف وقفتين مهمتين في ضوء فقه الموازنات:

الوقفة الأولى: المصالح التي حصلها المسلمون من صبرهم وتحملهم للجوع والقهر لمدة ثلاث سنين.

1. لقد كانت هذه المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية الجائرة سببًا في خدمة الدعوة والدعاية لها بين قبائل العرب، فقد ذاع الخبر في كل القبائل العربية من خلال موسم الحج، ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدعوة التي يتحمل صاحبها وأصحابه الجوع والعطش والعزلة لكل هذا الوقت، أثار ذلك في نفوسهم أن هذه الدعوة حقٌ، ولولا ذلك لما تحمل صاحب الرسالة وأصحابه كل هذا الأذى والعذاب.

2- أثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكة لقسوتهم على بني هاشم وبني المطلب، كما أثار عطفهم على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فما أن انفك الحصار حتى أقبل الناس على الإسلام، وحتى ذاع أمر هذه الدعوة وتردد صداها في كل بلاد العرب، وهكذا ارتد سلاح الحصار الاقتصادي على أصحابه، وكان عاملاً قويًّا من عوامل انتشار الدعوة الإسلامية عكس ما أراد زعماء الشرك تمامًا.

الوقفة الثانية: جواز التحالف المنضبط مع المشركين لتحقيق مصالح للمسلمين.

ويتبدى ذلك جلياً من تضامن مشركي بني هاشم وبني المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمايتهم له كأثر من أعراف الجاهلية، ومن هنا ومن غيره نجد أنه يجوز للمسلم أن يستفيد من قوانين الكفار فيما يخدم الدعوة الإسلامية

بشرط أن يكون ذلك مبنيًّا على فتوى صحيحة من أهلها، وموازناتٍ دقيقةٍ تراعي مقدار المصالح والمكاسب المجتلبة، وما يدرأ هذا التحالف من مفاسد حاصلةٍ أو متوقعةٍ.

يقول الشيخ سعيد حوى رحمه الله في ذلك: "إن حقوق الإنسان في عصرنا ضمان للمسلم، والحرية الدينية في كثير من البلدان يستفاد منها، وقوانين كثيرة من أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصًا وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك وغيره من خلال موزانات دقيقة« .

كما أن التحالف السياسي بين المسلمين وغيرهم له صورٌ وأشكالٌ متعددةٌ تتغير بحسب الظروف وحيثياتها وبحسب حال المسلمين ضعفاً وقوةً وحاجتهم إلى الصلح أو دفع العدوان وكل ذلك خاضعٌ لمنطق السياسة الشرعية وفقه الموازنات الرشيدة.

وقد ذكر الباحثون في السياسة الشرعية عدة شروطٍ أو ضوابطَ لأي تحالفٍ يتم بين المسلمين وغيرهم، ومن هذه الشروط :

1. انتفاء الشروط الفاسدة في العقد، فكل حلفٍ أو معاهدةٍ تشتمل على شروط تخالف الإسلام في عقد التحالف فهو حلفٌ باطلٌ أو معاهدةٌ باطلةٌ.

2. أن يحقق التحالف السياسي مصلحةً راجحةً للمسلمين، يقدرها خليفة المسلمين وحاكمهم في حال وجوده أو جماعةٌ من العلماء المجتهدين الحريصين المؤتمنين في إطار ما يعرف بالاجتهاد الجماعي. ومن المصالح الراجحة على سبيل المثال لا الحصر أن يكون بالمسلمين ضعفٌ أو قلة عددٍ أو يرجى إسلام المتحالف معهم، أو بذل الجزية منهم، أو يستعين بهم على غيرهم.

3. ألا يلحق هذا الحلف ضرراً بأية دولةٍ إسلاميةٍ أخرى أو جماعةٍ إسلامية أخرى.

والعمدة في ذلك مصلحة المسلمين، وهذا يحتاج لدراساتٍ معمقةٍ وشاملةٍ لذلك التحالف، وإخضاعه لفقه الموازنات الرشيدة، ولا بد أن يكون في الجماعة المسلمة التي تجري ذلك التحالف من التربية الإيمانية وحسن الطاعة في أفرادها ما يمنع ذوبانها واحتواءها، ويمنع من إقرارها لحكم ظالمٍ مستبدٍّ بالسكوت على ظلمه أو التهادن معه كشرطٍ من شروط التحالف.

رابعاً:الهجرة إلى الحبشة وما فيها من موازنات.

لقد اشتد الأذى والبلاء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد وصل الأذى بالصحابة إلى درجةٍ لا تحتمل، وهذا ينذر بإفناء الجماعة المسلمة الناشئة، أو بتزايد الاحتقان في المجتمع مما يولد شرارةً تؤدي إلى انفجار المجتمع كله، فللشباب طاقة تحملٍ، ولديهم من القوة والعنفوان ما يدفعهم لرد الأذى بمثله، ولكن ذلك سيؤول كما ذكرنا سابقاً إلى مجزرةٍ تودي بالدعاة جميعاً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ذلك كله، لذلك فتح لهم باب الهجرة إلى الحبشة وقال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صدقٍ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه" فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرةٍ في الإسلام .

لقد كانت هجرة الحبشة تحقيقاً للعديد من المصالح للمسلمين، ودفعاً للمفاسد التي لحقت وتلحق بهم، فمن المصالح المجتلبة ما يأتي:

1-حفظ الدين بحفظ حملته، فالمسلمون قد كثر عددهم، وظهر الإيمان في مكة وتحدث الناس به، وثار كفار قريش بمن آمن من قبائلهم يعذبونهم ويسجنونهم وأرادوا فتنتهم عن دينهم فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم ·

لقد كانت الخطة الأمنية للرسول صلى الله عليه وسلم تستهدف الحفاظ على الصفوة المؤمنة؛ ولذلك رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحبشة تعتبر مكانًا آمنًا للمسلمين ريثما يشتد عود الإسلام وتهدأ العاصفة، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشة ما أمنهم وطمأنهم، وفي ذلك تقول أم سلمة – رضي الله عنها –: "لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أَمِنَّا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه"

2-البحث عن قاعدة جديدة لحماية الدعوة: فمكة لم تعد تصلح قاعدةً للدعوة ولا لبناء دولة الإسلام في ذلك الوقت، لذلك كانت أنظار النبي تتوجه شرقاً وغرباً بحثاً عن قاعدةٍ جديدةٍ للدعوة، يقول في ذلك سيد قطب رحمه الله: "ومن ثم كان يبحث الرسول صلى الله عليه وسلم عن قاعدةٍ أخرى غير مكة، قاعدةٍ تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، وهذا في تقديري كان هو السبب الأول والأهم للهجرة، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة، حيث هاجر إليها كثيرٌ من المؤمنين الأوائل، القول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قويةٍ، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس وجاهةً وقوةً ومنعةً من المسلمين، غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا، إنما هاجر رجالٌ ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم في بيئةٍ قبليةٍ ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين"

ويعلق الدكتور منير الغضبان على كلام الأستاذ سيد بقوله: "وهذه اللفتة العظيمة من سيد –رحمه الله – لها في السيرة ما يعضدها ويساندها، وأهم ما يؤكدها في رأيي هو الوضع العام الذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة، فلم نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة حتى مضت هجرة يثرب، وبدر وأحد والخندق والحديبية، لقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات، وكان آخرها هذا الهجوم والاجتياح في الخندق، وحين اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة أمينة للمسلمين، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين، عندئذ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة، ولم يعد ثمة ضرورة لهذه القاعدة الاحتياطية، التي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم لو سقطت يثرب في يد العدو"

3-الدعوة إلى الله ونشر دينه في الآفاق، فقد كان هؤلاء المهاجرون من الصحابة سفراء الإسلام على الأرض الجديدة، وقد أسلم على يديهم ملك الحبشة النجاشي، وعددٌ لا بأس به من أهل الحبشة، فكان ذلك فتحاً جديداً للإسلام في العالم.

- وقبل أن أترك الحديث عن هجرة الحبشة لابد لي أن أجيب على سؤالٍ مهمٍ متعلقٍ بهجرة الحبشة وما شابهها، والسؤال هو: ما هي مشروعية الخروج من الوطن وإن كان مكة أفضل بلاد الله، والدخول في حمايةٍ ملكٍ نصراني، وهل يجوز ذلك في ضوء فقه الموازنات؟

إن الهجرة من الوطن وإن كانت مكة أفضل بلاد الله، إلى أرضٍ أخرى يجوز، إذا كان ذلك الخروج يحقق مصالح كبيرةً للمسلمين كالفرار بالدين، ورجاء أن يسمح لهم بعبادة ربهم وهم آمنون على أنفسهم وأهليهم، وهذا الحكم مستمرٌ متى غلب المنكر في بلدٍ، وأوذي على الحق المؤمنون ورأي الباطل قاهرًا للحق ورجا أن يكون في بلد آخر التخلية بينه وبين دينه وإظهار عبادة ربه فإن الخروج على هذا الوجه حقٌ على المؤمن، وهذه الهجرة التي لا تنقطع إلى يوم القيامة .

و يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواءً أكان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي، إذ كان نصرانيًّا عندئذ، ولكنه أسلم بعد ذلك، أم كان مشركاً كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة، وكأبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمطعم بن عدي الذي دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة في حمايته عندما رجع من الطائف.

ويشترط في ذلك ألا تؤدي هذه الهجرة إلى الإضرار بدعوة الإسلام، أو تغيير أحكامه، أو السكوت عن ارتكاب المحرمات.

نلتقي في الحلقة القادمة إن شاء الله